حبيب الأصفر : ابو بكر الصنوبري*

(شاعر الروضيات)

بقلم الدكتور فواز احمد طوقان

استاذ اللغة العربية وآدابها في الجامعة الاردنية ، عمان

عاش أبو بكر الصنوبري في عصر الحمدانيين . وقد اتخذ من المنطقة المتاخمة للدولة البيزنطية مستقرًا له . وكانت الرقعة الجغرافية التي يتجول فيها تمتد من انطاكية على الساحل الى الموصل في العراق مرورًا بشمالي سورية والجزيرة الفراتية والمرتفعات الجبلية العراقية .

ويظن انه وصل بغداد ، ونزل دمشق ، وتجوّل في بادية الشام .

وكانت الدولة العباسية آنذاك قد تمزّقت في كل اتجاه وغلب عليها الاعاجم من جند الى امراء الى امراء الدويلات ... واختلّ جبل الامن . وكانت الحضارة الاسلامية يومئذ في طور التبلور على ايدي فلاسفة وعلماء واديباء وكتّاب وفقهاء[1] . فلم يكن عجيباً ان يبرز اهل المعارف في كنف حدأت فيه الحال واستقرّ فيه حبل الامن . وقد شجّع كل امير محبّ للمعرفة رهطاً من اهل المعرفة فراجت فكرة تأليف الكتب برسم خزانة امير او وزير او صاحب دولة . كما راجت فكرة الالتحاق ببلاط من البلاطات

---

* تصدر مجلة « مواقف » قريباً ، « ديوان شعر الصنوبري » ، تحقيق الدكتور فواز احمد طوقان .

(١) راجع آدم متز ، « الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، أو عصر النهضة في الاسلام » ، الطبعة الثالثة ، ترجمة عبد الهادي ابو ريدة ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٧ .

مقابل جراية تجري . وقد حوّم حول الحمدانيين عشرات من اهل المعرفة ؛ الادبية والعلمية ؛ الى ان بلغ ذلك أوجه في بلاط سيف الدولة ذي الدولة الزاهرة والامارة العامرة[١] . ولقد دخل بلاط سيف الدولة ما لا يقل عن ثمانية عشر شاعرًا كلّهم ذوي بسطة في الشعر[٢] . احدهم واقدمهم ابو بكر الصنوبري . وقد كان هو والخباز البلدي من اوائل هذه الطائفة حتى سقطا في الترتيب امام عظمة المتنبي ودسائس البلاط ومكائد المنافسين[٣] .

وقد كان الصنوبري معتبرًا في اهل عصره حتى فاز بلقب « حبيب الاصغر » وهذا شرف كبير ان يقرن اسمه الى اسم ابي تمام حبيب بن اوس الطائي[٤] . ولقد طغى تخصصه في وصف الطبيعة على سمعته الاولى فأصبح يقال « روضيات الصنوبري » كما يقال « حوليات زهير » او « نقائض جرير » او « هاشميات الكميت »[٥] . وتشاء ايدي الرواة ان تربط بينه وبين المتنبي في منافرة شعرية مرّة او مناظرة شعرية مرّة اخرى اثنى فيها المتنبي على الصنوبري[٦] في قصيدته (الخائية) الضائعة التي حفظ لنا ابن رشيق بيتاً واحدًا جيدًا منها[٧] :

كان عيشي بهم انيقاً فسولّى وزماني فيهم غلاماً فشاخا

فقد قال المتنبي للصنوبري : انت شاعر بلدك[٨] ! كما شاء رواة عصرنا

---

(١) افضل ما كتب عن الحمدانيين وصلنا بالفرنسية :
Marius Canard, *Histoire de la dynastie de Hamdanides de Jazira et de Syrie.* 2 vols., Paris, Faculté des Lettres d'Alger, 1953.

(٢) خير دراسة باللغة العربية . أنفها الدكتور مصطفى الشكعة ، «فنون الشعر في بلاط الحمدانيين» . القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٨ ؛ في اكثر من ٥٠٠ صفحة من القطع الكبير .

(٣) راجع ابن رشيق ، «العمدة» ؛ القاهرة : مكتبة امين هندية بالموسكي ، ١٩٢٥ . ج ١ ، ص ٦٥ .

(٤) ابن رشيق ، «العمدة» ، ج ١ ، ص ٦٤ .

(٥) علي بن عبد الله البهائي الغزولي ، «مطالع البدور في منازل السرور» ، (القاهرة ، مطبعة ادارة الوطن ، ١٢٩٩) ، ج ١ ، ص ٢١٥ .

(٦) وهذا عجاب ، بديل ان يثني الصنوبري وهو الأسن على المتنبي الذي يصغره بعشرين عاماً على الاقل !

(٧) ابن رشيق ، «العمدة» ، ج ١ ، ص ١٨٠ .

(٨) ابن رشيق ، «العمدة» ، ج ١ ، ص ٦٥ .

توثيق الصلة بين الشاعرين فرووا قولاً لابن جني قوامه ان المتنبي ذكر الصنوبري واثنى عليه «بما يقال في مثله»[1] ! ولكن ذلك من الاوهام اذ ان المتنبي اثنى على ابي عليّ الصنوبري وهو ابن شاعرنا كما يبدو .

على اية حال . كان لشاعرنا قدره في زمانه كما غلب عليه ضرب من فنونّ الشعر صار يعرف به بعد وفاته . فما هي سيرة هذا الشاعر وما هو تخصصه ؟ هذا ما سنجيب عليه في الصفحات التالية :

ولد ابو بكر الصنوبري في انطاكية ، على الارجح ، وفي حدود سنة ٢٨٠ هـ ؛ على التخمين . وهي سنة من اخريات العهد الذهبيّ الشعري ، اذ لم يعمّر ابن الرومي ولا البحتري بعدها طويلاً . كما لم يبرز من الشعراء بعدها الا ابن المعتزّ قبل ان يشهد الناس عهداً ذهبياً آخر ويسمعوا بشاعرنا وبقصائده . لا نعرف عن نشأة الصنوبري ولا عن ثقافته شيئاً ابداً . وليس هذا بغريب ، فقليل من افذاذ العصور الاسلامية من عرفت تفاصيل ثقافته ، ناهيك بقصة نشأته . وحتى لم تذكر لنا معاجم السير والتراجم شيئاً مهماً في حياته الاولى : بل لم تتمشّ مع عادتها في ذكر اسماء من تتلمذ عليهم او من تتلمذ عليه : فمثلاً ابن شاكر الكتبي[2] يستدرك على ابن خلكان ترجمة للصنوبري قوامها قصيدتان واربع مقطّعات : وهي خلوّ تماماً من ايّة معلومات غير شعرية عنه . ولا تختلف اخال كثيراً في غيره من المصادر .

يعود الصنوبري بنسبه الى قبيلة ضبّة .

وقد اكثر في شعره من الفخر بها . اسمه الكامل ابو بكر احمد بن محمد (قيل محمد بن احمد) بن الحسن بن مرار . اما نسبته فقد نشأ حولها خلاف حادّ في العقد الثالث من هذا القرن . ورد في المصادر القديمة[3] ان الصنوبري

(١) راجع محمد راغب الطباخ : «الروضيات» ، (حلب ، المطبعة العلمية ، ١٩٣٢) ، ص ١٧ . وكتاب «الروضيات» الاول في بابه : يبحث في حياة الصنوبري ويضم كثيراً من قصائده في وصف الطبيعة وشيئاً من غزله ورثائه . ولم يخرج في بابه الى الآن ما هو افضل منه .

(٢) محمد بن شاكر بن احمد الكتبي ، «فوات الوفيات» ، (تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥١) ، ج ١ ، ص ١١١-١١٣ .

(٣) مثلاً ابن شاكر الكتبي ، «فوات الوفيات» ، ج ١ ، ص ١١١ .

ينسب الى الصين ، وهي نسبة غريبة يكاد شاعرنا يتفرد بها ان كانت صحيحة . وقد كثر فيها الجدال على غير طائل[١] . وردت النسبة كالتالي : « الصيني » . وهذا في نظرنا تصحيف ظاهر عن « الضبي » ، زحفت نقطة (الصاد) الى فوق انحناء (ياء) النسبة وتضخمت نقطة (الباء) حتى شاكلت (الياء) الاولى ، وتعاورت ذلك اوهام القارئين فغدا الضبيّ صينياً ! اما كيف غدا الضبيّ صنوبرياً فامر عجاب !

جرت العادة تلقيب الشعراء بالقاب مستمدّة من ابيات قالوها او حكم اطلقوها[٢] . فاذا تصفحنا شعر الصنوبري الذي بين ايدينا لم نعثر على بيت واحد في وصف الصنوبر او ذكره بشكل يدفع على تلقيبه بهذا اللقب . بيد انّ هناك قصيدة واحدة ينبري فيها الشاعر مدافعاً عن لقبه فيقول :

واذ عزينا الى الصنوبر لم نعز الى خامل من الخشب
لا بل الى باسق الفروع علا منتاسباً في ارومة الحسب...
فالحمد لله انّ ذا لقب يزيد في حسنه على النسب!

لكن هذه القصيدة لا تفسّر لنا لماذا « عزي الى الصنوبر » بل تدافع عن تلك النسبة . وتشاء ايدي الرواة ان تنقل لنا (او تصنع ان عزّت الحقيقة) الرواية التالية مفسّرة ما ابهم التاريخ . سأل ابو العباس عبد الله الصغري[٣] شاعرنا عن سبب نسبة جدّه الى الصنوبر فأجاب : « كان جدي الحسن ابن مرار صاحب بيت حكمة من حكم المأمون . فجرت له بين يديه مناظرة فاستحسن كلامه وحدّة مزاجه فقال له : « أنت لصنوبري

(١) لترى طرفاً من هذا الجدال ، راجع سامي الكيالي ، «سيف الدولة وعصر الحمدانيين» ، (الطبعة الثانية ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٩) ، ص ١٧٩–١٨٠ : « والصنوبري من الصنوبر ، وقد ود بعض المؤرخين هذه النسبة الى الصين فقالوا ابا بكر الصيني . ولست من هذا الرأي ، ففي شعره اشارات صريحة تناقض ما ذهبوا اليه ... الخ » .

(٢) عقد الثعالبي فصلاً من كتابه «لطائف المعارف» في القاب الشعراء الذين لقبوا بأشعارهم ، (تحقيق ابراهيم الابياري وآخر ، القاهرة ، دار احياء الكتب العربية ، ١٩٦٠) ، ص ٢٤–٣٤ خصوصاً ص ٢٤ حيث يدرج المحققان مصادر اخرى في الموضوع .

(٣) راجع الثعالبي ، «يتيمة الدهر» ، (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، مكتبة الحسين التجارية ، ١٩٤٨) ، ج ١ ، ص ٤٣١ .

الشكل »[1] ! ومهما يكن من امر تلك النسبة ، فقد شهر بها ووافقته ، اذ لا تسمع باسمه الاّ مقروناً بوصف الرياض ومفاتن الطبيعة ، فجاز عليه حقاً : « وافقَ شنٌّ طبقه »[2] !

لقلة المصادر عن الصنوبري ولقلة ما في هذه المصادر تغدو قصائده خير مرجع لحياته . ويبدو من تتبع قصائده ومناسباتها انه قضى معظم حياته في حلب وضواحيها . فانك تجد قصائده في وصف الطبيعة تمدح منطقة حلب وما حولها من بقاع ومتنجعات . بل انّ اروع قصيدة مدحت بها حلب هي قصيدته التي مطلعها :[3]

احبا العيس احباها وسلا الدار سلاها
واسألا ابن ظباء الـ ـدار ام اين مهاها
اين قطّان محاهم ريب دهر ومحاها
صمّت الدار عن السا ئل لا صمّ صداها
بليت بعدهمو النذا ر وابلاني بلاها...

وهي قصيدة طويلة تزيد ابياتها على المائة بيت . ولقد وصف مدينة حلب بقصائد اخرى كما وصف نهرها قويق بقصائد كثيرة اهمها تلك القصيدة التي ذكرها ابن الشحنة في كتابه وحفظها لنا الصولي في ديوان الصنوبري ومطلعها[4] :

---

(١) راجع ابن عساكر : « تهذيب تاريخ ابن عساكر » ، (تحقيق عبد القادر بدران وآخر عيد ، دمشق ، ١٣٢٩) ، ج ١ ، ص ٤٥٦ .

(٢) ذكر المستشرق آدم متز هذا الحوار حول كنية شاعرنا ولم يستغرب « الحبي » . كما فسر « الصنوبرية » بانها تعود الى بيع الاخشاب الصنوبرية لا الى حكمة الاجداد : « ويدل لقبه ... على انه هو او اباه كان يتجر في خشب الصنوبر » ، متز : « الحضارة الاسلامية » ، ج ١ ، ص ٤٧٣ .

(٣) وذلك في رأي من ذكر حلب من مؤرخين وجغرافيين ، مثلاً ابن شداد : « الاعلاق الخطيرة » ، (تحقيق دومنيك سوردیل ، دمشق ، المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية ، ١٩٥٣) ، ج ١ ، قسم ١ ، ص ١٥٧ ، فنصّها بالابيات « الطائة » ؛ ياقوت الحموي ، كتاب « معجم البلدان » ، (تحقيق فستنفلد ، لايبزك ، ف. أ. بروكهاوس ، ١٨٦٧) ، ج ٢ ، ص ٣١١ ؛ فأطرى القصيدة واكتفى بها في كتابه عن غيرها في وصف حلب .

(٤) « الديوان » ، ص ١٧٦ أ – ١٧٧ أ ، وهي نسخة خطية فريدة موجودة في مكتبة الجمعية الملكية الاسيوية في كلكتا بالهند .

قويق له عهد لدينا وميثـــاق وهذه العهود والمواثيق اطواق

وقد وصف فيها قويقاً وصفاً وجدانياً رائعاً. وذكر لنا ابن عساكر في ترجمة الصنوبري انه قدم دمشق، ولكن لا ندري مدة اقامته فيها. وكانت نتيجة هذه الزيارة قصيدة طائية طويلة في وصف دمشق مطلعها[١]:

هل الارحل محطوطـــة وعير الشوق مربوطـــه

واطرف ما فيها وصف الجامع الاموي وخصوصاً النسيفساء الرائعة التي تزيّن جدرانه[٢] والمحراب الفائق. قال في وصف المحراب:

صف المحراب صف تشنيـــف بانيـــه وتقريطه
اما يخشى امـــام قا م في المحراب تغليطـــه
ووسّط طرفك القبلـــة ان حاولت توسيطه
ترى سلطان حسن لا يملّ الطرف تسليطه...

وقد ذكر في شعره اماكن عديدة تقع حول دمشق في الغوطة[٣] ونستنتج من ذلك انه زارها جميعاً..

وقد اكثر من السفر كما يظهر. فعندما زار دمشق نظم ابياتاً وردت في ديوانه المخطوط وعندما انصرف عنها نظم ابياتاً اخرى على نفس القافية[٤]. وقد تعدّدت اسماء الديارات التي ذكرها الصنوبري في شعره. ومن الطبيعي انه زار كلاً منها مرّة ان لم يتردّد عليها. واهم هذه الديارات دير زكي[٥]. وقد وصف الصنوبري ومدح متنزّهات هذا الدير[٦]:

---

(١) «الديوان»، ص ١٣٣ أ؛ وكذلك ابن شداد: «الاعلاق الخطيرة»، (تحقيق سامي الدهان)، ج ٢، ص ٧٠.

(٢) كتب الكثير عن هذه النسيفساء حديثاً، راجع مثلاً:
K.A.C. Creswell, *A Short Account of Early Islamic Architecture* (London, Penguin Books, 1958), pp. 44-81, especially, pp. 56-57.

(٣) مثلاً: دير مرّان وهي على الاربجح قرية دمر، وبردى وداريا وباب جيرون. راجع قصيدة الصنوبري في ذلك، ابن شداد، «الاعلاق الخطيرة»، ج ٢، ص ٣٢٦.

(٤) «الديوان»، ص ٣٠ أ.

(٥) راجع: ابو الحسن علي بن محمد الشابشتي، «الديارات»، (الطبعة الثانية، تحقيق كوركيس عواد، بغداد، مكتبة المثنى، ١٩٦٦)، ص ٢١٨–٢٢٧؛ ياقوت، «معجم البلدان»، ج ٢، ص ٦٤٤.

(٦) الشابشتي، «الديارات»، ص ٢١٩.

أيا متنزّهي في دير زكّى الم تك نزهتي بك نزهتين
اردد بين ورد نداك طرفا يردّد بين ورد الوجنتين
ومبتسم كنظمي اقحوان جلاه الطلّ بين شقيقتين...

وذكره في قصيدة جيدة اخرى : فمن ابياتها[١] :

كم غدا نحو دير زكى من قلب صحيح فراح وهو حزين
لو على الدير عجت يوما لامتلك فنون واطربتك فنون...

ولم نعثر له على شعر يصف فيه انطاكية مسقط رأسه . ويبدو ان مقامه في الموصل في كنف سيف الدولة كان شيئاً طارئاً : اذ لم يلمع نجم سيف الدولة في الموصل بل في حلب وذلك عندما دخلها عام ٣٣٣ هـ[٢] . ولم يعمّر الصنوبري بعد ذلك طويلاً . ولكن الفكرة التي نخرج بها عند قراءة المصادر التي تناولت شاعرنا بالذكر ان الصنوبري كان من ندماء سيف الدولة المقرّبين[٣] . ويبدو انّ هذه الصلة لم تكن صلة خادم بمخدوم او مادح بممدوح ، بل كانت صلة نديم بنديم وشاعر ظريف بامير كريم . وانك لترى في شعر الصنوبري اثر الظرف وخفّة الظل[٤] :

كم من ضرير بصير ومن بصير ضرير
ومن حمير تراهم على ظهور الحمير

او قوله في الاعتذار لنهر قويق وقلة مائه في الصيف[٥] :

قويق على الصفراء ركّب جسمه رباه بهذا شهّد وحدائته
فان جدّ جدّ الصيف غادر جسمه ضئيلاً ؛ ولكنّ الشتاء يوافقه!

وقد تطورت علاقته مع سيف الدولة حتى كان الامير يزوره في قصر بناه الصنوبري واحاطه بجنّة فريدة حشر فيها صنوف الحيوان والطير وزرع

(١) الشابشتي ، «الديارات» ، ص ٢٢٣ .
(٢) توفي الصنوبري عام ٣٣٤ هـ.
(٣) راجع مثلاً : محمد راغب الطباخ ، «الروضيات» ، ص ١١ .
(٤) «الديوان» ، ص ٧ب .
(٥) «الديوان» ، ص ١٧٣ أ .

فيها انواع النور والشجر . وقد شغل بهذا القصر وهذه الجنّة عن اصدقائه حتى عاتبه صديقه كشاجم[1] على هذا التقصير بحقّ الخلان :

أتنسى زمناً كنـــا بـــه كالماء والخمـــر
اليفـــين حليفـــين على الايسار والعســر
مكبّين عـــلى اللذا تفي الصحو وفي السكر

الى ان يتول ذاكرًا البستان والقصر :

فألمحتـــك بساتينـــك ذات النّور والزّهر
ومـــا شيّدت للخلو ة من دار ومن قصر
وما جمّعت من غرس ومن فسل ومن بذر
ونـــارنج وريحـــان جنّي طيّب النشر...

ويبدو ان منادمة سيف الدولة له كانت تتم في هذا البستان اذ لم تكن عزّة الامارة قد اخذت الامير سيف بعد فلم يستنكف عن زيارة شاعرنا في داره . كما كانت صلاته بالامير قبل ذلك تمتدّ الى الرقّة[2] وغيرها من مدن الجزيرة . وقد توّجت هذه العلاقة فاضحى شاعرنا خازن كتب الامير (ولا ندري افي الموصل ام في حلب ام غيرهما)[3] . ولا بدّ ان ثقافته كانت واسعة[4] بحيث عيّنه سيف الدولة في هذا المنصب . واذا اردنا تعيين سنة

(١) راجع كشاجم ، «ديوان كشاجم» ، (بيروت ، ١٣١٣ هـ) ، ص ٧٤ وما بعدها .

(٢) ذكر الصنوبري الرقة والرافقة كثيراً في شعره ، وقد دعيتا بالرافقتين وبالرقتين من باب التغليب . راجع في شأنهما ياقوت ، «معجم البلدان» ، «الرافقة» ، ج ٢ ، ص ٧٣٤ ؛ «الرقة» ، ج ٣ ، ص ٨٢٠ .

(٣) وقد شاركه في هذه المكرمة عدوّاه اللدودان الخالديان . راجع مثلاً علاء الدين علي بن عبد الله البهائي النزولي ، «مطالع البدور في منازل السرور» ، (القاهرة ، مطبعة دار الوطن ، ١٣٠٠) ، ج ٢ ، ص ١٧٦ .

(٤) ذكر ياقوت ان الصنوبري كان يتردد على دكان وراق في الرها حيث التقى بالكثير من ادباء ذلك العصر ، راجع آدم متز ، «الحضارة الاسلامية» ، ج ١ ، ص ٤٦٤ ؛ عن ياقوت ، «معجم الادباء» ، الجزء السادس من سلسلة ابي . جيه . و . جب ، تحقيق د. مارغوليوث ، لندن ، شركة لوزاك وطبع في القاهرة ، ١٩٢٤) ، ج ٢ ، ص ٢٣ . وردت كذلك في داود بن عمر الانطاكي ، «تزيين الاسواق بتفصيل اشواق العشاق» ، (القاهرة ، ١٣١٩ هـ) ، ص ١٧٠ .

بعينها لهذا الحدث فقد تكون ما بين سنة ٣٢٠ هـ. وسنة ٣٢٥[١] . فيكون عمر الصنوبري عندئذ قد ناهز الاربعين . ولكن السؤال الذي يتبادر الى الاذهان : ألم يلمع نجمه قبل ذلك؟ تعسر الاجابة على هذا السؤال في ضوء المعلومات التي قدمها لنا مصنفو كتب السير والاعلام . ويبقى لنا ديوانه نقتنع منه بذكر مناسبة بعض قصائده .

ولقد تتبع الباحثون قبلنا هذا النهج وخرجوا بنتيجة طريفة لا بأس ان شرحناها ، لكن كان ينقصهم ديوانه الذي جمعه الصولي[٢] . اعتنى محمد راغب الطباخ بالصنوبري كما يشير في مقدمة **الروضيات**[٣] اثر ازدياد المعلومات لديه عن الصنوبري عندما صنّف تاريخه **اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء**[٤] ولقد لاحظ في المادة التي بين يديه عدم توفّر اية قصيدة يمدح بها سيف الدولة . فقاده هذا الى الاستنتاج بان للصنوبريّ نفسية مختلفة عن نفسيات الشعراء[٥] وانه لما رأى نفاق وصف الرياض عند سيف الدولة ، صرف « وجهته الى ذلك وكاد يقتصر عليها لانا لم نر فيما جمعناه من نظمه قصيدة او ابياتاً في مديح سيف الدولة »[٦] . وقد ردّ هذا جميعه الى تفاذ قريحة شاعرنا وحدّة ذكائه والى جملة اخرى من الصفات الحسنة[٧] . وقد تابع الطباخ باحث آخر[٨] وتبحّر في النظرية حتى عدّت قاعدة ثابتة الاركان . ولا بأس في ايراد طرف منها بالحرف : « فقد شغل الصنوبري بوصف الطبيعة عن مخازي التملّق وخسيس الرياء .. كان يقضي ايامه بين الكتب والرياض . يقرأ ويتأمل صنع المبدع الخلاق . ثم ينظم قلائده الحسان في وصف الطبيعة الجميلة الخلابة . وقد احبّ سيف الدولة في

(١) ولد سيف الدولة سنة ٣٠٣ هـ ، فتكون سنه عندها ١٧ عاماً الى ٢٢ عاماً : وهي سن مقبولة لامير فتى ينشئ مكتبة خصوصاً اذا نال ثقافة واسعة على يد استاذ كأستاذه ابن خالويه .

(٢) ابن النديم ، «الفهرست» ، (تحقيق فلوغل ، لايبزك ، ١٨٧١–١٨٧٢) ، ص ١٦٨ .

(٣) الطباخ ، «الروضيات» ، ص ٩ .

(٤) طبع في حلب ، المطبعة العلمية ، ١٩٢٣ .

(٥) الطباخ ، «الروضيات» ، ص ١٠–١٢ .

(٦) الطباخ ، «الروضيات» ، ص ١٢ .

(٧) الطباخ ، «الروضيات» ، ص ١١ .

(٨) سامي الكيالي ، «سيف الدولة وعصر الحمدانيين» ، ص ١٨٠–١٨٢ .

الشاعر اباءه وعذوبة روحه وتعلّقه بالجمال فاتخذه... نديمه وصفيّه ؛ وافسح له المجال ان يحيا هذه الحياة الحانئة في ظلال الرياض يستجلي فتنة الطبيعة بشتّى مباهجها ومختلف صورها ليسمعه هذة النبرات التي فاض قلبه بحبها ؛ وسكبها قطرات من حسّه في تصويرها »[1] .

بيد اننا لو نظرنا الى نسخة الديوان الخطيّة لعثرنا على اكثر من قصيدة طويلة في مدح سيف الدولة[2] . بل لرأينا في قصائد المدح الطوال ما يبدّد تلك النظرية أدراج الرياح[3] ؛ لا بل لوجدنا ان سهمه في وصف الرياض قليل جداً اذا قيس بضخامة الديوان[4] . وهنا نجد ان قول ابن شرف القيرواني كلام لا غبار عليه في ان الصنوبري مدح وهجا وسرّ وشجا[5] .

يتجلى لنا من تصفّح ديوانه المخطوط نزعة مادية قوية ، وفي نظرنا : انما هي تعبير عن الحالة الاجتماعية السائدة في ذلك العصر . وليس هذا مقام تفصيل القول فيها . ويمكن تلخيص ذلك كلة بالاشارة الى ان ديوانه يحتوي على قصائد كثيرة في المذكر والخمر والهجاء المفحش كثرة لا تنسجم مع تحليلات الباحثين المحدثين . ونستشف من هذا ان علاقته لم تكن دائماً مع علية القوم ونجباء السادة ، وانّ نفسيّته لم تختلف تماماً عمّا كان سائداً آنذاك .

ولو أردنا اعادة بناء سيرة حياته من خلال ديوانه الذي معنا : لطال بنا الحديث ولرجعنا الى كلّ قصيدة وربطناها بحادثة في حياته . ونكتفي بالاشارة الى قصيدتين نستدلّ منهما على جانب من جوانب حياته الادبية :

---

(١) الكيالي : «سيف الدولة وعصر الحمدانيين» ، ص ١٨١ .

(٢) مثلاً : «الديوان» ، ص ١٤ب وما بعدها ، ص ٢٣ أ ، ص ٢٣ب وما بعدها ... الخ .

(٣) مثلاً بعض قصائده في ابي اسحق السلماني ، «الديوان» ، ص ٢ب وص ٣٨ أ وص ٩٦ أ وص ١١٧ب .

(٤) بين يدينا الجزء الثاني من ثلاثة اجزاء . ويحتوي هذا الجزء على ما لا يقل عن ٤٥٠٠ بيت من الشعر ، اقلها في وصف الرياض .

(٥) محمد بن شرف القيرواني ، «اعلام الكلام» ، (القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ١٩٢٦) ، ص ٢٤ ، ويظهر من وصفه انه اكثر الذين تكلموا في الصنوبري اضطلاعاً ومعرفة ، اذ ان وصفه لشعر شاعرنا صادر عن رجل عليم بالموضوع علماً اكيداً .

١ — « وقال وقد بلغه ان غلامه عبدالله بن واصلة لما دخل مصر مع ابي العباس بن كيغلغ مدح ابا القاسم الرمي بقصيدة من شعر ابي بكر ؛ وكتب الى ابي بكر يسأله ان يوجّه اليه بديوان شعره ؛ فكتب اليه ابو بكر :

أأنسيت عبدالله والنأي قد ينسى حنوّي في يومي عليك وفي امسي
وايام وصل يا ابن واصلة انطوت على السعد في حيث انطوت لا على النحس
نفست على سينيّتي بحليها فحلّيته سينية لك في الرمّي ...
وحاولت ديواني منها انا باعث اليك به فن غير مطل ولا حبس
ولكني على اني اعلّق فوقه تعاويذ تحميه من الجنّ والانس
ولولا اتقاء الوزر ايضاً بعثته ومن فوقه مكتوبة آية الكرسي ...»[1]

٢ — « وقال يستعطف محمود بن السندي كشاجم لما عتب عليه في معارضته ارجوزته الطائية :

فيم عاد الرضى ابا الفتح سخطا والدنو الذي عهدناه شحطا
ام لماذا نقضت شرط اخ لا ينقض الدهر للاخوّة شرطا
تتخطى الى الشجني وما عذ ر خليل الى التجنّي تخطّى
وتغطّى الجفاء دوني فتأبى حركات الجفاء ان تتغطى
ان يكن لي تذكري (الطاء) جرم لا تراني من بعدها اذكر (الطا) ![2]

يتضح لنا من هاتين المقطوعتين ان حياة الصنوبري الادبية كانت غزيرة غنيّة . وهذا يتلاءم مع ما ذكر عن مجالسته اهل الادب في دكان سعيد الوراق الرهاوي . كما انّ هذا يوافق الجوّ الثقافي العام الذي ساد مجتمع الحمدانيين .

لم تكن حياة الصنوبريّ سروراً كلها . فقد فجع بابنة صغيرة له جزع عليها اشدّ الجزع ورثاها بقصائد عديدة[3] اكثر فيها من التفجّع حتى وهم الدكتور مصطفى الشكعة ان « الصنوبري لم يكن له من الولد

(١) «الديوان» ، ص ٦٥ب — ٦٦ب .
(٢) «الديوان» ، ص ١١٤ أ .
(٣) مثلاً في قافية الراء نظم اربع قصائد طوال وثلاث مقطعات ، «الديوان» ، ص ٣٥ أ — ٣٨ أ .

غير تلك الابنة ! »[١] لكن الصنوبري خلّف ابناً ذكر الثعالبي اسمه على هذا الشكل : ابو علي الحسين بن احمد الصنوبري![٢]

على اية حال ، فقد ابتنى قبة فوق قبر ابنته هذه وزينها بابيات الشعر من كل جانب[٣] . ويبدو من رثاء ابي بكر لابنته انه رثاء افتتان اكثر منه رثاء تفجّع وحسرات ! اذ لم يخرج بشيء جديد في هذا الباب ، واغلب صور رثائه دراماتيكية مبالغة .

ويتصل بهذا الموضوع شعر الصنوبري في رثاء آل البيت . فقد اكثر من ذلك وبالغ ؛ حتى كانت القصيدة الواحدة تربو على الاربعين بيتاً او ازيد . وقد جارى معظم شعراء بلاط سيف الدولة شاعرنا في هـــذا . ولا غرو . فقد تقدم عليهم بالزمن كثيراً وتناول الموضوع باسهاب وتركيز مجارياً سنة اختطها من قبله الكميت ابن زيد الاسدي (توفي ١٢٦ هـ) والسيد الحميري (توفي ١٧٣ هـ) وغيرهما ممن شهر في هذا الفن[٤] . كما ان الحمدانيين انفسهم كانوا شيعة اثني عشرية[٥] ؛ فوافق الصنوبري هواهم حين نظم هاشمياته . ولا نستطيع الجزم ان كان مشيّعاً عن عقيدة ام عن افتنان . اذ اننا لم نر اثر هذه النزعة في قصائده غير الهاشمية .

يقول في قصيدة يرثي فيها النبي وآله :

دور الغرّي[٦] ودورا بالطفّ حيّيت دورا

---

(١) مصطفى الشكعة ، «فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين» ، ٢١٦ .

(٢) الثعالبي : «يتيمة الدهر» ، ج ١ ، ص ١١١٨ ، حيث تروى وقائع مقابلة بين ابي علي الصنوبري والمتنبي . وقد وهم الطباخ حين حسب ان الثناء والتقريظ اللذين شهدهما المتنبي هما اعتراف بمنزلة ابي بكر الصنوبري الادبية ـ وعل ما يبدو كان ابو علي الصنوبري شاعراً كأبيه ! اضف الى ذلك ان لأبي علي هذا أخاً آخر باسم بكر ! والا لم كنية ابي بكر لشاعرنا ؟!

(٣) ابن عساكر ، «تهذيب تاريخ ابن عساكر» ، ج ١ ، ص ٥٦٤ – ٥٧٤ .

(٤) راجع جواد شبر ، «ادب الطف أو شعراء الحسين» ، صدر منه جزآن حتى الآن ، بيروت ، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ، ١٩٦٩ ؛ راجع كذلك الشكعة ، «فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين» ، ص ٢٢٨–٣٠٢ .

(٥) راجع الشكعة ، «فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين» ، ص ٢٩٦–٣٠٢ ، وص ٧٩–٨١ .

(٦) الغري بناء بالكوفة قرب قبر علي ، الفيروز ابادي ، «القاموس المحيط» . الطف ، مكان قرب الكوفة كان فيه مقتل الحسين ؛ ياقوت ، «معجم البلدان» ، ج ٣ ، ص ٧٩٠ وج ٣ ، ص ٥٣٠ على التوالي .

كم قد حويت جبالا كم قد حويت بحورا
وكم تضمّنت خيرا وكم تضمّنت خيرا
اضحى الهدى في قبور ضمّنتها وقبورا
ملّئت للفاطميّين من لوعة وزفيرا
الافضلين جهادا والافضلين نصيرا
الصائمين المصلّين من طهّروا تطهيرا
والمنطوين بطونا والمنحنين ظهورا
والمطعمين يتيما والمطعمين اسيرا ...[١]

وللصنوبري قصيدة طويلة تزيد على المائة بيت يرثي فيها الحسين بن عليّ ، يقول فيها :

يا بني احمد هواكم هوى خالط منا مخاخنا والمشاشا
جاد قبرًا بكربلاء رشاش السقيت ما اسطاعت الغيوث رشاشا
واستجاش الربيع فيها جيوشاً من جيوش الربيع منها استجاشا
نقشت روضها اكفّ حياها وكفى الروض بالحيا نقّاشا ...[٢]

توفي الصنوبري في حلب سنة ٣٣٤ هـ[٣] ؛ وروى سنة ٣٣٥ هـ. وقد سلّط عليه في حياته شاعران (ابو بكر وابو عثمان الخالديان) يسطوان على شعره ويزاحمانه على عمله . كما ساء حظّه ، فقد كاد شهابه يخبو لمّا لمع نجم بلاط سيف الدولة وتلألأت طوالع شعرائه . فكأنما اغضى عنه تأريخ الأدب في حقبة التقاط انفاس . واروع ما قيل في الاعتذار لسوء طالعه ما ذكره آدم متز : « كان الصنوبري صغيرًا فلم ينل مكاناً في كتاب الاغاني ؛ وكان مسناً فلم ينل مكاناً في يتيمة الدهر (للثعالبي)[٤] !

(١) «الديوان» ، ص ٣٢ب – ٣٣ أ .
(٢) «الديوان» ، ص ٨٤ب .
(٣) راجع مثلاً الذهبي ، «العبر في خبر من غبر» ، (تحقيق صلاح الدين المنجد ، الكويت ، وزارة الارشاد والانباء ، ١٩٦٠ – ١) ، ج ٢ ، ص ٢٣٧ .
(٤) آدم متز ، «الحضارة الاسلامية» ، ج ١ ، ص ٤٦٤ .

ذاعت شهرة الصنوبري كوصّاف للطبيعة فصر فنّه كلّه او جلّه على نظم مغانيها ومجالاتها حتى صار يعرّف بها. ورغم ذلك لم يركّز احد من الباحثين المحدثين اهتمامه على دراسة وصف الطبيعة في شعره من ناحية موضوعية غير كاتب هذا المقال[1]. وقد وجدنا ان اسلوبه في وصف الطبيعة يتجه في اتجاهين. الاول موضوعيّ. والثاني: وجدانيّ. فمن اصدق الامثلة على وصفه الموضوعي ما نظمه:

ونرجس مضعف تضاعف منه الـحسن في ابيض وفي اصفر
الدرّ والتبر فيه قد خلطا للعين والمسك فيه والعنبر[2].

وهي صورة ساكنة لا حركة فيها. وفي اصدق الامثلة على وصفه الوجداني ما وصف به النرجس ايضاً[3]:

أرأيت اجمل من عيون النرجس ام من تُلاحظُهنّ وسط المجلس
درّ تشتّت عن بواقيت عـلى قضب الزمرّد فوق بسط السندس
اجفان كافور حبين بـاعين من زعفران ناعمات الملمس
وكأنها اقمار ليل احدقت بشموس افق فوق غصن املس
مغرورقات في ترقرق ظلّهـا ترنو رنوّ الناظر المتفرّس
فاذا تغشّتها الرياح تنفّسـت عن مثل ريح المسك ايّ تنفّس
وحكى تداني بعضها من بعضها يوماً تداني مؤنس من مؤنس
هذا وذاك تعانقا في مجلس عشقاً وتلك تعانقت في مغرس
واذ انعست من المدام رأيتها ترنو اليك بأعين لم تنعس...

وهي صورة مليئة بالحركة والوجدان. فاعين النرجس تتلاحظ وتغرورق بالدمع من الطلّ؛ كما ان هذه الازهار تتنفّس عن رائحة المسك وتتداني

(١) نواز احمد طوقان، «وصف الطبيعة في شعر الصنوبري»، «مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق» (مجلة المجمع العلمي العربي سابقاً): ٤٣ (١٩٦٨): ص ٨١٠–٨٢٥، ٤٤ (١٩٦٩)، ص ٥٦٩–٥٧٦؛ ٤٥ (١٩٧٠)؛ ص ١٢٧–١٤٢. وقد سدت هذه الدراسة فراغاً فاضحاً، بيد انها لم تتناول لغته الشعرية ولا المحسنات البلاغية التي اغرق في استعمالها واقتصرت على موضوعات شعره في وصف الطبيعة.

(٢) راجع طوقان، «مجلة مجمع اللغة العربية»، ٤٣ (١٩٦٨)، ص ٨١٣.

(٣) «الديوان»، ص ٦٨ب.

بعضها من بعض مؤانسة وعشقاً ... الخ وهذا وصف يختلف كلياً عن الوصف الموضوعي للنرجس .

ولو تفحّصنا وصفه الموضوعيّ نراه يتّجه في ثلاثة اتجاهات : الاول ، يبني الموصوف بناء ؛ والثاني ، يتناول الموصوف تحليلاً ، والثالث ، يتناول الموصوف اتفاقاً[١] . وهو يمزج هذه الاتجاهات الثلاثة احياناً في وصف وجداني فيتحفنا بالطريف النادر ، وصف الديك في قصيدة فاجاد[٢] :

مغرّد الليل ما يألوك تغريدا ... مل الكرى فهو يدعو الصبح مجهودا
لما تطرّب هز العطف من طرب ... ومدّ للصوت ، لما مدّه ، الجيدا
كلابس مطرفاً مرخ ذوائبه ... تضاحك البيض من اطرافه السودا
حالي المقلد لو قيست قلادته ... بالورد قصّر عنها الورد توريدا
ران بغصّتي عتيق يدركان له ... من حدّة فيهما ما ليس محدودا
تقول هذا عقيد الملك منتسبا ... في آل كسرى عليه التاج معقودا
او فارس شدّ مهمازيه حين رأى ... لواء قائده للحرب معقودا!

وكما يلاحظ ، صاغ من الديك ابّهة ملوكية[٣] .

ولا نزال نقع للصنوبريّ على لقايا شعرية فذّة في وصف الطبيعة وما يتصل بها من حدائق وجنات . ولا بأس ان ختمنا ببعض تلك اللقايا . قال يصف الشقيق[٤] :

وكأنّ محمرّ الشقيق اذا تصوّب او تصعّد
أعلام ياقوت نشر ... ن على رماح من زبرجد

وقال يصف الرياض[٥] :

---

(١) راجع هذا القول مفصلاً في : طوقان ، «مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق» ، ٤٣ (١٩٦٨) ، ص ٨١٤-٨١٦ .
(٢) النويري ، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب ، «نهاية الأرب في فنون الادب» ، (القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٣٣) ، ج ١٠ ، ص ٢٨٥ .
(٣) راجع التعليق على هذه القطعة ، طوقان ، «مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق» ، ٤٣ (١٩٦٨) ، ص ٨٢٥ .
(٤) طوقان ، «مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق» ، ٤٣ (١٩٦٨) ، ص ٨٢٢ .
(٥) ابن شاكر الكتبي ، «فوات الوفيات» ، ج ١ ، ص ١١١-١١٢ .

يـــا ربم قومي الآن ويحك وانظري ... مـــا للربى قد اظهرت اعجابهـــا
كانت محاسن وجهها محجوبة ... فالآن قد كشف الربيع حجابها
ورد بدا يحكي الخدود ونرجس ... يحكي العيون اذا رأت احبابها ..
والسرو تحسبه العيون غوانيـــا ... قد شمّرت عـــن سوقها اثوابهـــا
وكأنّ احداهنّ من نفح الصّبا ... خود تلاعب موهنا اترابها
لو كنت املك للرياض صيانة ... يوماً . لما وطىء اللئـــام ترابها .

وهو وصف رائق جميل احرى للصنوبري ان يلقب عليه بالسرويّ .

٥

ولا بأس ان اختتمنا هذا المقال بحكمة سائرة للصنوبري يحقّ له ان يسمّى بها « حبيباً الاصغر » . قـــال حبيبٌ « الاكبر » :

لولا اشتعال النار فيما جاورت ... ما كان يعرف طيب نشر العود !

وقال « حبيب الاصغر »[1] :

محن الفتى يخبرن عن فضل الفتى ... كالنـــار مخبرة بفضل العنبر !

(١) الثعالبي ، « التمثيل والمحاضرة » : (تحقيق عبد الفتاح الحلو ، القاهرة ، دار احياء الكتب العربية ، ١٩٦١) ، ص ١٠٨ .